ملح يافا الحلو

– إلى روح أمي –

المتوكل طه

ماتت أمي والطبول البعيدة تقترب من نافذتي، فيترنق الأصيص، ويبدأ حلم طفل يلهث بالحجارة في براري الشقائق والشمس الصغيرة . ماتت، والقوس بكامل توهّجه في سماء الانتفاضة، واضح الأطياف، يفتح الأبواب للبرق المخزون في غيوم الأرض .

ماتت الحاجة عفيفة والدم لم يتخثّر في أرض الرباط، والبطن المبقور يشهد على الجلنّار المذبوح على صدر أُمه، واللجوء ما زال يفرد غربانه من هناك إلى هناك .

ماتت، وامرأة نائحة تقول لآخر أبنائها: اذهب حتى لا تغلبني الخنساء أو تجد نساءُ المخيّم ما يكسر عزائي . وامرأة تقول لضفيرتها: احترقي حتى يحفظ ابني خارطة الغناء . والمفتاح الثقيل يقول لحامله الشيخ: ما زلت قادراً على فضّ الرمّانة وفك الصدأ . وطفل يولد الآن يقول: امسحوا دموعَ فاطمة حتى لا ترمد عيون مريم .

ماتت أُمي، والحجر الفلسطيني ما زال يهشّم وصايا التائهين الذين أحالوا المكان المؤوّل بالوهم حيث تصل البساطير، إلى سجن يدوّي بالغضب . ماتت، وعرق الشيوخ يختلط بشرايين أبنائهم، ويدهم على جراح أحفادهم كأنها يد الله على كتف الأنبياء .

ماتت الحاجة عفيفة، والناس هنا في فلسطين يتقاسمون الرغيف والنزيف الذي يصهد الصخر، فتنحلّ خاصرته ويصبح ذراعاً يشهد على تعالي النسغ والضفيرة والرغيف الذي يُسقط قمحه في جرح غائر أو قبر صغير أو حدقة لا تنام .. ليشقوا العتمة، ويفتحوا ذلك المسرب السريّ للبراعم والطيور، لّتكون كمشيئّة الله، لا يهتك ًبها غاز أو عارٌ أو دخيل .. وحتى نسمع تلك الطبول البعيدة التي تقترب من كل النوافذ التي لم تقوَ على أيائلها الشظايا والطائرات .. وحتى نصحو بعد ليل طويل على صوت مولودة لها اسم إيمان أو فتى له اسم محمد، وحتى ننسى عرائس الموت وقشعريرة الإعدام الجماعي، أو نحتفي

بأولئك المصلوبين، خلف القضبان، على العقرب المخاتل .
ماتت أُمي، والسيدة العمياء «العدالة»، لم تسترجع بعد بصرها أو بصيرتها .. لكننا ماضون .

* * *

غالباً ما يضع أهل المريض سيناريو موته، كأنهم يهيّئون روحهم للحدث الغليظ الذي سينزع عزيزهم من بين ضلوعهم، وكأن المرض توطئة للموت أو أوّل درجاته المعتمة، رغم أن عظام المرضى لا تزال مبتلّة بالحياة، وبخار أنفاسهم ينسرب بهدوء إلى النوافذ الكئيبة. وربما كان هذا السيناريو مداراة لصعقة الموت، أو استعداداً لاستقبال الخبر الواقع لا محالة، أو تفادياً لجزع الفراق وضربته المصوّحة!
أما أهل الميت الذي يغادرهم فجأة فإنهم يلجأون إلى غير حيلة من حيل الدفاع الآلي، لينتصروا على المفاجأة الفظّة العارية التي تسقط في رؤوسهم مثل قنبلة عمياء .
بمعنى، أن مرض الأعزاء، أواخر أيامهم، عزاء، بما يحمله من رسالة أولى تجعلنا نتخيّل أنفسنا وحالنا عند موت أحبابنا .. وما أن يموتوا، راضين مرضيين، حتى نحيل أنفسنا وحالنا لمعايشة الواقع الذي مررنا به وجرّبناه .. واحتملناه، لهذا يكون دمعنا أقل، وحزننا أبهى وأعمق .

* * *

كانت تقول أمي –رحمها الله – دائماً: «ملح يافا حلو»! وعندما خطبني أبوك كنت في العشرين من عُمري، على أبواب العنوسة آنذاك، العام 1942 .. أخذني إلى يافا لشراء كسوة وجهاز العروس، وما أن دخلت تلك المدينة التي كانت تضفضف بذهب البيارات وشهد الخيول، حتى أيقنت أنها مدينة معبأة بالسحر؛ تأخذك إلى امتلائها وروائحها وتفتحها الحذق .. كانت مدينة واسعة مزدحمة وغنيّة بحريرها وأضوائها وأطعمتها الفوّاحة .. غادرتها ذلك المساء لأزورها في أحلامي، كأنها مدينة ملوك الجان، أو علّيات ابن الأمير، عدتُ إليها، غير مرّة؛ لمعاودة طبيبة الولادة ، وللسينما، ولابتياع أوّل خزانة ملابس بدل صندوق العروس!
وقبل النكبة بعام واحد، كنتُ على شفير الوضع، وكان حملي صعباً، وما أن أجلسني أبوك على رصيف أحد مطاعم المدينة، حتى وقعت عدة انفجارات، فتراكض الناس، وعمّ الهلع والصفير واصطخبت المدينة.. ولا أدري كيف وجد أبوك سيارة أقلّتنا إلى قلقيلية .. ومن يومها لم أذهب إلى يافا!

* * *

ماتت أُمي، قبل أربعين يوماً، ولم آخذها إلى يافا، حتى لا يحتشد قلبها، وتنفجر رمّانة صدرها، لأن يافا لم تعد هناك، لقد أصبحت خرائب منكسرة وبيوتات مُرهقة ومحلاّت خاوية، كأن يافا تختصر سيرة

المَظْلمة، وتقدم مشهد النكبة كاملاً .. ودون مبالغة!
لقد ماتت أمي صبيحة يوم التاسع من نيسان، يوم ذكرى مذبحة دير ياسين، وعشية معركة القسطل، كأنها – رحمها الله – ظلّت تحمل غصّة الخبر المروّع ثلاثة وخمسين عاماً، وأرادت أن تلتقي أرواح المذبوحين في ذكرى ترويعهم وبَقْر بطونهم واتساع جروحهم وسحجات صدورهم، أو كأنها تريد أن تشحذ الحزن وتبعثه فينا، لنعرف طَعْم اليُتم، ومعنى أن نهيل التراب بأيدينا على مَنْ نحبّ .
اليتيم يتيم الأم، لأن الإنسان يظلّ طفلاً حتى يفقد أمّه، عندها يشيخ ويهرم ويكبر فجأة ألف عام. ويكتشف، مرّة واحدة، أنه كهل، وأن له أبناءً كبروا وطاولوه، وأنّه لم يبق من العمر أكثر مما مضى!! وربما لا يتغضّن وجه اليتيم، لكن قلبه يتجعّد، وتأخذ ملامحه بالغروب، ولو كان مَصُوغاً من تبرٍ وأرجوان .

* * *

«تخيّل، لقد دفناها بأيدينا، وعندما أصعد درجات البيت لن أجدها»، قال أحد أشقائي الذين يكبرونني – فأنا من الأخوة الصغار – وراح يبكي كأنه لا يصدّق موتها ...
الحاجة عفيفة، أو «عِفّو» عندما كُنّا ندلّعها حتى آخر أيامها فتنسكب ضحكتها المرتاحة، كانت مرهونة للبكاء الهادئ ..
– من أين تأتين بالدمع يَمَّا؟ ولماذا؟
عندما يُرزق أحدهم بمولودة أُنثى كانت تبكي . وعندما تسمع بموت أحدهم، آخر البلد، كانت تبكي . وعندما يتأخر المطر كانت تبكي . عندما كان يسافر أحدنا أو يُعتقل كانت تبكي، وعندما يعود كانت تبكي. كانت تبكي وهي تشاهد المسلسلات التلفزيونية. وتبكي إذا جاء العيد أو هلّ شهر رمضان. وإذا تزوّجت حفيدتها تبكي، وإنْ جاءها المخاض تبكي... كانت تعتقد أنها بدموعها تناصر المغلوب والمصاب، وتشارك الفرحان فرحته، وقلّما حرّكت شفتيها وهي تبكي، لكنها أحياناً كانت تقول: الله يعينها، أو الله يعين أُمّه، كان بكاؤها خفيفاً طاهراً، وغالباً ما ينتهي بضحكة صغيرة تقنع بها مَنْ حولها بأن بكاءها طبيعيٌّ وواجبٌ لا بد منّه .
لكن بكاءها كان يمتد ويطول ويصبح ضارياً ومؤلماً عندما تذكر يافا وبيارات البلاد وأيام السَعْد هناك، أو عندما تسمع بخبر استشهاد أحد الشبان الاستشهاديين الذين يفجّرون أنفسهم .. كانت تبكي على أشلائهم، وتخاف عليها من النّجس والعري والحرمان من الدفن، كانت تعتقد أن الأعداء يرمون أشلاء الشهداء في مكبّات النفايات للجرذان والقطط والكلاب الضالة .. وتبكي .

لقد اعتدنا على بكاء الحاجة عفيفة، لكن الغريب أن رموشها الطويلة كانت تزداد طولاً ولمعاناً، كأنها كانت تسقيها بهذا الدفق الحنون، حتى بقيت حزمة السنابل السوداء شاهدة على عينيها المصقولتين اللتين تترجرجان بذلك الماء الزجاجي السهل. وبقيت الحاجة عفيفة معافاة ناشطة، محافظة على عاداتها،

كارهة كل التقنيات الجديدة وكل الأجهزة الحديثة، فهي لم تستعمل «الشامبو» ولم تصبغ شعرها، وظلّت تمشّطه أو «تكدّه» بمشط العَظم المُسنّن من جهتيه، وكانت تفرك أسنانها بالملح، وظلّت مُخلصة للصابون النابلسي، وتلوك الزعتر عراق والميرمية لتطيّب أنفاسها، مثلما تنصح النساء من حولها بوضع الحبق الجاف الملفوف بقطعة قماش خفيف فوق أماكن الجسد الحسّاسة أو فركها بورق الليمون الطري بعد الاستحمام، أو استعمال حزمة من الشجّيرية لتليف الجسد بدل الليفة أو الاسفنجة . وكانت الحاجة عفيفة لا تثق إلا بالدنانير، بل تعتبر الشواقل، مثلاً، عملة غير محترمة، ولا تساوي شيئاً، ولا يمكن أن «يحوّشها» الإنسان العاقل .

كانت تحبّ المرأة المدبّرة غير المبذّرة، وتكره الرجل البخيل أو العنيف الذي يضرب بناته أو يشتم زوجته، وتعتبره (مُش زلمه)، لأنه (يتشاطر على الولايا) مثلما كانت تنفر من الرجال الذين يحلقون شواربهم، ومن النساء اللواتي يبالغن في المكياج ووضع الأحمر والأخضر للرايح والجاي!

* * *

كيف قبلت بالزواج من أبي – رحمه الله – وهو أكبر منك بثلاثين سنة؟

تقول لي أمي: لأنني كنت متيقّنة من أنه سيأخذني إلى يافا ..

– كان بإمكانك أن تذهبي مع أبيك إلى هناك!

تقول: لم يكن من عادة الآباء اصطحاب أبنائهم، وبالذات البنات، إلى «شمّ الهوا» أو إلى أي مشوار، ثم كان أبوك أنيقاً شاباً ..

– وهو في الخمسين؟

تقول: لم يكن في الخمسين من عمره، بل أقل بكثير، ثم إنني (شفقتُ عليه) لقد كان خارجاً من سجن عكا، بعد أن أمضى سبع سنين معتقلاً، وكان أرملاً غنياً .. ثم إن أبي – جدّك – رحمه الله أجبرني على الزواج منه .. الله يسامحه!! ثم ماذا تريد الواحدة منّا! لقد أعطاني الله كل ما أريده؛ أولاداً وخيراً كثيراً، ثم كان أبوك حنوناً كريماً إلى حدّ التبذير، لقد عشت معه أكثر من عشرين عاماً كلّها عسل ولوز، وكان يجلب لي من يافا، كل شهر، هديّة؛ مروداً، أو عطراً، أو أسوارة، أو أكْلة حلو، أو مشاوي عالفحم، أو عباءة...

– أو ماذا يا عقو؟!

تضحك .. وتذهب إلى هناك، وتغيب عنا وهي جالسة بيننا، وتبرق عيناها بالزجاج الرخو .. بهدوء رسولي عميق .

كانت أمي – مثل أهل زمان – تعتبر ذهابها إلى يافا قبل النكبة، أو إلى القدس للصلاة في الحرم، بضع مرات، سفراً بعيداً، كانوا يستعدّون إليه ويودّعون بعضهم قبل أن «يخطروا» إلى تلك المدن، وبعد عودتهم يظل سفرهم هذا مدار حديثهم عدة أسابيع، ثم كانوا يعرضون الهدايا التي جلبوها من هناك لكل مَنْ يأتي للسلام عليهم وتهنئتهم بسلامة العودة، كانت الأرض حينذاك صغيرة، وأفقها القريب بعيداً إلى حدّ السذاجة والاستغراب .

أما عقد الذهب العسملّي الذي كانت تضعه الحاجة عفيفة على صدرها، في المناسبات، فهو عبارة عن اثنتي عشرة ليرة ذهبية رشيدية، اشتراها زوجها من عند «المسيحي» أبي حنّا من «نُصّ يافا» قبل ما «تروح» البلاد بسنتين .. وكانت الحاجة تتحسس عقدها كأنها تمسّد حبّات برتقال يافا «الناصح»، أو تمسح حبّات الشتاء عن زهرة ليمون تضوّع الأرض بأريجها الأخّاذ.

* * *

ربما عرفتُ لماذا أصرّ والداي – رحمهما الله – على زرع بيارة برتقال في أراضينا شرق قلقيلية، بعد النكبة .. كأنهما يريدان أن تحمل قلقيلية عن يافا بياراتها وأراضيها المرعة العطرة التي أخذها اليهود. لكن أمي كانت تفضّل تناول البرتقال بعد تقشيره، وتكره عصير البرتقال! والسبب أن أحد أخوالها، واسمه «أبو زهدي»، كان يملك بيارة وبئراً ارتوازية ما بين يافا والرملة، وكانت له «حسبة» خضار في يافا، يبيع فيها برتقاله وخيرات المواسم الباذخة .. ولمّا وقعت النكبة هاجر أبو زهدي هذا إلى قلقيلية، وحرّم على نفسه أكل البرتقال أو شرب عصيره ما دامت البلاد تحت الاحتلال، لكن أحد الشبان تآمر على أبي زهدي ولم يكن يقصد أن يؤذيه .. لقد صبّ عصير البرتقال في إبريق الفخّار الذي اعتاد أبو زهدي الشرب منه في الصيف .. وما أن وصل العصير إلى جوف أبي زهدي، حتى نزل كأنه السمّ الزعاف .. ونقلوا أبا زهدي إلى المستشفى .. وضاقت أنفاسه .. ولم يلبث يومين حتى مات .

* * *

كانت أمي تقول: لولا رحمة الله تعالى لسقطت قلقيلية مرتين في أيدي اليهود! فالمرّة الأولى عندما أطبقت العصابات الصهيونية خناقها على المثلث الفلسطيني (جلجولية، الطيرة، الطيبة)، وهي قرى تحيط بقلقيلية من الشمال والغرب والجنوب، ولا تبعد بعضها عن قلقيلية مسافة ثلاثة كيلومترات، وتتصل أراضي هذه القرى بأراضي قلقيلية التي راح معظمها مع النكبة، حيث خسرت قلقيلية عشرة آلاف دونم زراعي خصب .. عندها هاجر بعض أهالي يافا إلى قلقيلية، فيما وصل معظم أهالي قرى كفر سابا ومسكة وخربة عزون وسيدنا علي وملبّس والعباسية وراس العين إلى قلقيلية أيضاً، فاستقر بعضهم فيها، وواصل الآخرون هجرتهم شرقاً وإلى كل الجهات . والمفارقة أن أهالي قلقيلية، عندما وصل اليهود إلى قرى المثلث واحتلوها، حملوا أنفسهم وهاجروا شرقاً بضعة كيلومترات إلى منطقة تسمى «حنيش»، لكنهم لم يطيلوا فيها المقام، وعادوا إلى بلدتهم بعد أقل من أسبوع. أما المرّة الثانية فكانت ظهيرة حرب حزيران 1967 عندما هاجر كل أهالي قلقيلية شرقاً، وعادوا بمعجزة خارقة بعد شهر إلى بلدتهم، بعد أن كان الاحتلال الاسرائيلي قد هدم وحرق أكثر من ثمانين في المئة من بيوتها، حيث كانت تنوي إسرائيل هدم البلدة وتسويتها بالأرض، لاقترابها وتداخلها مع حدود أراضي 1948، كما فعلت بقرى اللطرون (بيت نوبا، عمواس، يالو) .

وقد شهدت قلقيلية العام 1956 عملية نسف مبنى «العمارة» التي كانت تقع شمال المدينة، حيث تسللت عصابة عسكرية صهيونية، وقامت بتفجير المبنى بمَنْ فيه، ليلاً، ليستيقظ أهالي قلقيلية مع سقوط سبعين شهيداً قضوا في العملية الغادرة . كما قامت عصابات يهودية أخرى بنسف ست آبار ارتوازية ومحطتي الوقود في البلدة خلال العامين 1964 و1965م . كما يتذكر أهالي قلقيلية كوكبة من الشهداء الذين وقعوا ضحايا الرصاص اليهودي، وهم يهمّون بالتسلل إلى الدولة العبرية الناشئة آنذاك، لتنفيذ عمليات ثأر ضد مَنْ أخذوا أرضهم وطردوهم منها .

*　　*　　*

ماتت أمي وهي تحتفظ بالكواشين الأصلية، في علبة معدنية، تضعها بعيداً عن الأيدي والعيون، في خزانتها، وفي تلك العلبة تضع عقدها العسملّي وما تيسّر لها من نقود ورقية . وفي السنوات الأخيرة، كانت توصينا بالكواشين، حقّنا في فلسطين، أكثر من مئتين وستين دونماً تمتد من شمال جلجولية حتى قبر النبي يمين جنوب غرب قلقيلية، في منطقة اسمها «مارس السعيد»، والسعيد، بالمناسبة، هو زوجها أو والدي سعيد البكر ابن صالح طه ابن نزّال الممتد نسبه إلى الشيخ علي الغمري ابن الشيخ عبد الدايم، الذي تسمّت باسمه قرية الدوايمة غرب مدينة الخليل، والمنتمي إلى الأشراف – هكذا تعتقد العشيرة – والأشراف هم أحفاد أبناء الحَسَنين ابنيْ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
ورحم الله أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي الشاعر المتنبي الذي قال (وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام) لأنه صدق في قوله هذا، حيث رفض والدي سعيد البكر، دون كل أهالي قلقيلية، أن يتسلّم «كرت اللاجئين» الذي تم توزيعه من (الأونروا) – وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين – على كل أهالي قلقيلية «دعماً» لهم على خسارتهم أرضهم التي نهبتها الدولة الجديدة .. وسبب رفض والدي هو أن الأشراف لا يجوز لهم أخذ الزكاة من المسلمين أو قبول صدقاتهم، فكيف لهم أن يتقبّلوا صدقات الكفار المتآمرين على فلسطين!!؟

يافا – أم القرى – والبلدات المحيطة بها، نداهة تغوي الجميع؛ مَنْ رآها أو سمع عنها، كانت مدينة تحرس البحر وتسامره فلا تنام، حتى لا تتركه وحيداً مستوحشاً، أو حتى لا يتسلل إلى البيارات ليلاً فيمتصّ رحيقها ونسغ قناديلها الذهبية، ويعود عذباً يزبد عطراً وزهراً .. بعد أن يترك الشجَر ضعيفاً كابياً .
– ربما فعلها البحرُ مرّة، فاكتسب حلاوة البرتقال وعذوبة عسل زهره الضوّاع، فصار الماءُ الأُجاج سُكّراً .. لهذا قال الناس: ملح يافا حلو –
في فيروز الشهد، غمست أمي ساقيها، وانفتح البحر أمامها منصّة زرقاء لا نهائية، وكانت شاشة السماء تطرّز غيومها البيضاء الخفيفة طيوراً من قطن وخيال .. وما أن عادت ذلك المساء إلى قلقيلية، حتى أحسّت بأعراض الحمل، وأن ثمّة نطفة مائية تكبر في رحمها .. لقد كان البحر!!

* * *

أزهر وجه «عقّو» فرحاً، ستلد نهراً أو عروساً تلتقط لها حبّات اللؤلؤ من القيعان الزرقاء، لكن وجه أبي، الذي عَلم بأمرَ الحَمل، ظل على حاله صلباً محايداً، أقرب إلى التجهّم والحزن منه إلى الفرح والحبور .. ولم يخَالجه شكّ بأن زوجته امرأة عادية قابلة للحمل الطبيعي أو الإجهاض أو العُقم .. وانتظر حتى مضت الشهور التسعة، لكنّ المرأة لم تلد، وانتظر الجميع ساعة مخاض الموج .. وانتفخ بطن الحامل، وبدت عليها ملامح الوهن والإرهاق .. وفي منتصف شهر أيار من العام 1948 استيقظت المرأة .. وكم كانت دهشتها من أن بطنها عاد كبطن الغزالة دون نتوء حمل أو علامات ولادة .. لقد كان الحمل كاذباً! وراحت أحلام العروس .. لكن المرأة ظلت قادرة على الحمل والولادة ...